من يصدِّق الرسائل؟

• ياسين عـــــدنـان

إلى صندوق البريد ١٤٩٢*

مُعلّلتي بالوَصْلِ والموتُ دونَه،

حبيبتي هند،

لقد مرَّت الأمورُ كما اتفقنا. كلّ شيء نُفِّذَ بدقة. فبعدما قتلناها معًا وغادرتِ، سحبتُ الجثةَ بهدوء إلى حجرة النوم (لا تنزعجي.. لقد ارتديتُ القفّازتيْن). نزعتُ عنها المعطفَ القطنيَّ وشققتُ قميصَها والميني جوب ليبدو كما لو أنّ الجريمة اغتصاب (سأكون الأكثرَ بعدًا عن الشبهات في هذه الحالة كما تَعْلمين). لم أقترب من الدولاب كما وعدتُكِ. تكفيني الأساورُ والقلادةُ الذهبيّة التي أخذتِها قبل ليلتيْن. حبيبتي، ابقيْ حيث أنتِ عند عمّتك. أرجوكِ، تحمّلي ثرثراتها الخرفة، ولا تتدخلي ثانيةً في عراكها مع الجارات. دعيها تُشْعل الحرائقَ في الحارة كما يحلو لها. لستِ امرأةَ إطفاء. ربما سيكون عليكِ أن تنتظري طويلاً؛ فأنا مجبر على البقاء قريبًا لكي تظلّ الشبهةُ بعيدة. سأَخْضع من دون شكّ لاستنطاقات الشرطة. فأنا حبيبُها على حدّ وهمها، والكلُّ يَعْرف ما بيننا. ولكنْ بعد أن تهدأ القضية وينتهي دوري، سأمرّ إلى شقتِك، ألملم ما خفّ حملُه من ثمين متاعك، وأخفّ إليك.

حبيبتي... ما أجمل الحبَّ، هذا الأبيضَ الطريَّ، بعد عمليةٍ حمراءَ كهذه!

ليت هندًا أَنْجَزَتْنَا ما تَعِدْ

حبيبتي نوال،

لقد مرت الأمورُ كما اتفقنا. كلّ شيء نُفِّذ بدقة. حتى إنّ المسكينة صدّقتْ أنّكِ الآن في عداد الأموات. فبعدما أطلقتُ عليكِ الرصاصة تلك.. (تضحكين!) نطّت أرانبُ مذعورةٌ من عينيها، وأُغْمي عليها في الحين. بصعوبة بالغة، أعني بسلسلة من الصفعات، جعلتُها تفيق. قلتُ لها: «غادري فورًا، وأنا أتكفّل بالباقي.» قلتُ لها أيضًا أن تغادر فورًا من أجل أعصابها. ثم صرختُ في وجهها: «قلتُ غادري...» فلملمتْ أعصابَها وحقيبةَ يدها ومضت.

حبيبتي، آسف إذ لم أكلِّف نفسي الإشادةَ ـ للتوّ ـ ببراعتكِ في أداء الدور. فقد كان عليّ أن أقتفي أَثَرَ الأخرى، وأتأكّدَ من أنّها ستُنْجز حقّاً ما وعدتْ. لم أتنفس الصعداءَ إلاّ بعدما رأيتُها بأمّ عيني تصعد الحافلة المناسبة بالذعر المناسب. الحمقاء لم تَفْهم أنّ حبَّنا أقوى من أن نساومَ عليه. لم تَفْهم أيضًا أنّي مغرم بك هائم، و أنك لا خِلّ هواك ولا خمر، فإنْ كنتُ مطبوبًا...(إلى آخر القصيدة). ثم إنّ مفتاح بيتها في جيبي. حلالٌ عليكِ غنائمُه.

آه يا حبيبتي، ما أجمل الحبّ، هذا الأحمرَ الطريَّ، بعد جريمةٍ بيضاءَ كهذه!

أعلّل النفسَ بالآمالِ أَرْقبُها

حبيبتي منى،

لقد مرت الأمور كما اتفقنا. كلّ شيء نُفِّذ بدقة. فالأُولى تظنّ نفسَها شريكةً في جريمة قتل، وهي الآن غارقة في الكوابيس وثرثراتِ عمتها هناك. والأخرى هنا تعلِّل النفس ـ عبثًا ـ بنسائم الحب وغنائم الغرفة المهجورة، إنما هيهات! فقلبي ليس زهرةً ليُقطف، ولا

* ـ صندوق البريد ١٤٩٢، هو عنوان كتاب مخطوط للشاعر سعد سرحان.

حديقةً منزليّةً أَغْرس بها أيَّ نبتةٍ شئتُ. إنه حمامة طليقة اختارت أن تحطّ إلى الأبد بين أغصان دوحة أنوثتك (كما أقول في آخر قصيدةٍ كتبتُها عنكِ).

حبيبتي، أشكر مساعدتكِ لي على دعس العقربتيْن. لقد كانت الخطة ناجحة. فهنيئًا لحبّنا. بعد الزوال، سأمرّ عليكِ في صالون الحلاقة. سآخذ سيارتَكِ لساعات، ومفتاحَ شقتكِ أيضًا. فعلّي أن أنقل أشياء هند وما خفّ من متاعها إلى بيتكِ. بعد انتهائكِ من العمل، أرجوكِ استقلّي سيارةَ أجرة إلى البيت، فلن أتمكن من المجيء إليكِ. سأكون مشغولاً بإعداد أشهى عشاء لأشهى الحبيبات.

آه يا عزيزتي... ما أجمل الاستلقاءَ تحت شجرة الحبّ الخضراء في هدنة خضراء بعد يوم من المتاعب بالألوان!

ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

أبي العزيز،

لقد مرت الأمورُ كما اتفقنا. كلُّ وصاياكَ نَفَّذتُها بدقّة. فقد انقطعتُ عن حياة اللهو التي جذبني طيشي الأولُ إليها. وانصرفتُ ـ واللّهُ شهيد ـ إلى العمل بكل جوارحي. وإذا كانت رسائلي إليكم قد انقطعتْ هذه السنة، فلأنّني كنتُ خجلان من نفسي. لم أستطع أن أكاتبكَ إلا بعدما تأكدتُ أنّني أصبحتُ شخصًا آخر، غصنًا أخضرَ صالحًا يُمْكنه ـ عن جدارة ـ أن يَفْخر بالانتماء إلى شجرة عائلتنا الوارفة. ويمكنكم بدوركم أن تفخروا منذ الآن بي.

والدي العزيز، بفضل وصاياكَ الغالية ودعواتكَ المستجابة، وانشغالي بالعمل عمّا سواه، تمكنتُ هذه السنة من جمع ثروة صغيرة يُمْكن أن أبدأ بها، إنْ شاء الله تعالى، حياتي الجديدة. (بالمناسبة، لقد اشتريتُ سيارة).

لكنّني ما عدتُ أحتمل العيش وسط هذه المدينة المجنونة. الإنسان مخلوق ضعيف يا أبي، وهذه المدينة غولٌ شديد البأس. إنّها وكرُ شياطين. صخبٌ لا يُحدّ. مناكر. ومغريات. لا أخفيكَ أنّني بها أخشى فعلاً على نفسي من أن أعود، والعياذ بالله، إلى سيرتي الأولى. لذا قررتُ أن أرجع إلى البلدة، وأفكّرُ في الاستقرار نهائيّاً هناك.

أبي العزيز، يمكنكَ الآن أن تذهب برأس مرفوع عند عمّي حميد وتخطب لي بنته الياقوت. الياقوت لي، وأنا لها؛ هكذا أوصت جدتي يامنة في ذلك المساء الشتويّ القديم.

أبي... ها قد نفذتُ وصاياكَ. نفِّذْ إذن وصيتَها.

بربِّكَ أَخبرْني ألم تأثَمِ التي...

عزيزي القارئ،

لقد مرت الأمور كما لم أخمِّنْ قطّ. كنتُ للتوّ قد انتهيتُ من كتابة تلك القصة، حينما تدحرجتْ حبكتُها ككرةِ بلياردو مجنونةٍ فوق سرير الحب الذي أسكن إليه منذ شهور. والحكاية بدأتْ هكذا. تركتُ المسوّدات فوق مكتبي الوطيء المجاور للسرير، وخرجتُ لشراء الليمونادة. كانت «عتيقة» مستلقيةً فوق السرير تداعب حلمتيْ نهديْها، كعادتها كلما سرحتْ في البعيد.

ولا شكّ أنّها كانت قد بدأتْ تلملم فوضى المكتب في محاولة للانشغال عن غيابي حينما وجدت الرسالة. الرسائل الأولى كانت مدسوسةً في العدد الأخير من المجلة. والأخرى لم تجد غيرَ الأخيرة. لم تستطع أن تَكْبح جماحَ فضولها الأنثويّ، وقرأتْ: «أبي العزيز، لقد مرت الأمورُ كما اتفقنا... إلخ».

رجعتُ بالليمونادة. فتحتُ الباب بصخب سعيد. وجدتُ الغرفة على الفوضى المرحة التي تركتُها عليها قبل دقائق. لكنّ أشياءها لم تكن هناك: حقيبة يدها. قرطاها اللذان تتخفف منهما عادةً ساعة الحب. ساعتها الذهبيّة. علبة سجائرها. المنامة السوداء التي قررتْ ذاتَ ليلة أن تتركها عندي لأنّي الوحيد الذي أستحقّ أن أراها بها. وحدَه عطرُها الصديق كان يظلّل ردهة السكون.

بعد لحظات من الذهول بدأتُ أتحرّك في الغرفة محاولاً استيعابَ ما جرى.

انتبهتُ إلى ورقة مضغوطة بعصبيّة وملقاة قرب الأباجورة. كانت الأكسسوار الزائد الوحيد. هرعتُ إليها. التقطتُها. سرحتُها. وقرأتُ: «أبي العزيز، لقد مرت الأمور كما اتفقنا...»

يا إلهي.. مَنْ يصدق؟ مَنْ كان يخمّن هذا الفخّ؟ مَنْ سيوضح لها الآن أنّ الرسالة ليست رسالة، وأنّ الأمر لا يتعلق سوى بالجزء ما قبل الأخير من قصتي «مَنْ يصدق الرسائل؟» مَنْ يستطيع إقناعَها بكل هذه الفوضى؟

بل أين هي.. أين هي لأقول لها إنّ الأمر محضُ حكاية، وإنّ مَنْ يحكي كمن يَحْفر بئرًا في بحرٍ والماءُ يتسرَّب أمامه من كل الجهات؟ ها قد مضت. صدَّقتِ الرسالةَ ورحلتْ بعيدًا عن الجرح الذي ليس جرحًا لأنَّ الرسالة ليست رسالة.

آه، ما أغبى هذه القصة. أعني تلك القصة. فبسببها يُنْشِب الحبُّ الليلةَ مخالبَه في سريري الفارغ البردان.

وَرْزازات (المغرب)